

## تأمين على الحياة ...

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت بثرثراتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التي يسودها العناد والمكابرة ، مفضيةً بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نفايات الخمر ...

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين شاب يدعى شافعي ، أو الأستاذ شافعي كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب ... ولم لا يكون أستاذاً ، وهو الذي لم يكد يخفق في حياته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى انزج كاتباً أو شبه كاتب في بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصدائها في جنبات المحاكم ... ومرت أمام عينيه أضماميم القضايا ، فعلمت بأنظاره أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتاب المحاماة تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإيذار والكد للخصوم ؟

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق الظهر . فرباط رقبته المهلهل الذي قرّحته الأدران يعقده عقدة ضخمة كأنها سلخفاة آخذة بتلايبه ، وشعر رأسه العامر بالمقاذر يرّجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد أطل من جيب سترته الأعلى قلم حبر ، أو بالأحرى أنقاض تاعسة من قلم ثمين لو أوتيت معجزة النطق لصاحت :

— ارموا عزيز قوم ذلّ !

فان هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع ... ما أعياه عن أن يخط حرفاً بله كلمة ... ولم يكن الفتى ليريده على أن يجري بشئ على القرباس ، وإنما كان يتخذ شعاراً أو إشارة تعلن أنه من حملة الأقلام !

كان الشباب يختلف إلى ذلك الحان دأباً لا يتخلف ، ويمضي فيه أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا . . . وكان صاحب الحان يلقاه بوجه جهم عبوس ، ونظرة نكراء يتوضح فيها الإهزاء . . . أليس في ذلك كله آية بينة على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المكانة في دنيا التصعلك والفراغ ؟ وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد في ذلك الحان قد ملتهم كرامتهم وضجرت بتشبههم ، تراهم لا يشعرون بطائف من اللالة والضجر ؛ إذ كانوا يأبسون بهذا الصخب الذي لا يفتر وتلك المحاورات التي لا يخبوها أوار ومتى كلت حناجرهم أشرعوا أبصارهم إلى الطريق يجردون فيه مجالاً للمتعة والسلى ؛ فقد كان الحان قائماً في ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ازدحاماً وحركة . . . المركبات على اختلاف أنواعها في جيئة وذهوب ، والسابلة على تباين طبقاتهم وأزيائهم ؛ لا يفتر تتابعهم من رجال ونساء . . . في أصيل يوم كان الأستاذ شافعي يتحدث إلى حشد من الرفاق ، وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولاً ، وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوهم غيره بأنه من أولئك النفر المسافرين للتطور الاجتماعي المشاركين في جديد أنظمتهم وأوضاعه . . .

ومن حق الأستاذ شافعي أن نسجل له ما أوتي من بصر نفاذ مؤثر يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل طنانة رنانة ، والكلمات فحمة ضحمة ، يليقها مصطنعاً لهجة المحامين ، متخذاً طرائقهم في الإشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :

الجهل بالقانون لا يعفى من المسؤولية !

المتهم بريء حتى تثبت إدانته ! . . .

أياخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينا كان الأستاذ شافعي متدفقاً في حديثه ، فالجمع حوله شاخص مشدود ، إذا بضجة تتعالى في ملتقى الشارعين . فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألقى الزهمة تزايد ، والطريق تتعطل حركته ، وما هي إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبي لبتان كان يسرع بدراجته الخرية عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها في البيوت ، وفي ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعاً

من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبي في بلاهة يندب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المجتمعين حوله خوفه بما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح متمهما الصبي بجعله نظام المرور وحادثة عهده بسياسة الدراجات . . .

وظل الأستاذ شافعي يدافع الناس بمنكبيه حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصا وهو يرقب مجرى الحوار . . . وأوشك الجمع أن يتحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفي تبعته . وكيف لا يصدقون رجلا يترع على مقعده العتيد في سيارة ضخمة يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق؟ وكيف لا يكذبون ذلك الصبي الغرير الفأفء الذى لا يحسن إلا الشكوى والتحسر والانخدال ، معبرا بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف أقسامه حتى لتتأى به عن طلعة الانسان ، وتجعله أدنى إلى مرتبة العجماوات ، فلا يثير بشكله وبمحدثه إلا السخر والاستهزاء؟

وما هي إلا أن تقدم الأستاذ شافعي يجابه السائق بقوله :

— يجب أن تحدد المسؤولية تحديدا واضحا يا حضرة . . . أنت في سيارة ، وهذا الصبي في دراجة ، والفرق جلي بينهما من حيث القوة على الضبط والربط ، وإنه سابق لك وأنت من ورائه تراه ولا يراك . . .  
ومسح الصبي اللبان لعابه المتسائل على زوايا فمه ، ودعدك أنفه المتنفش ، وهلق في ذلك الشباب مشدوه النظرات . . .

وصمت الجميع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطبق بصوته الجهير . . .  
ودبت الحماسة بين جنبي الأستاذ شافعي ، فعلا بصدرة ، وأصلح رباط رقبته المنتفخ ، ثم انتزع قلمه العتيد من جيب سترته الأعلى ، واندفع يشهره في وجه السائق ، وهو يقول :

— القانون صريح في تحديد المسؤوليات . . . إن . . .

فقاطعه السائق متحديا يقول :

— لا تدخل فيما لا يعينك يا أفندى !

وأحس الأستاذ شافعي أن السائق يتحفز لشر ، فخشى المعبة ، وألغى قدميه تتراجعان . . . ولكنه لمح شبح الشرطي يتخطر في طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحمية ، واستأنف قوله متصايحا منتفخ الأوداج :

— كيف لا يعينيني ؟ أتعرف من أنا ؟

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

— لم أتشرف بعد يا جناب « الحكمدار » . . . !

فغضب عليه الأستاذ شافعي وقد ملك أعصابه ، قائلاً في تودة ،

وهو يحكم مخارج الحروف :

— أنا السكرتير العام في نقابة المحامين ، وعضو مجلس الادارة المنتدب . . .

وتراءى شبح الشرطي وقد تصيدت أذنه بعض ما تفوه به الشاب الثائر ،

فاستشعر له شيئاً من التقدير ، وراه يتجه إليه ، ويسترسل أمامه في نبرات

خطابية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غالباً في التفصيلات ،

متحدلقاً في التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

— القانون صريح . . . من أضرَّ بآخر لزمه التعويض !

وكان صني اللبان قد انتبذ بدراجته مكاناً غير بعيد ، وعينه تنتهب

الأستاذ شافعي ، وفمه ينفرج عن بسمة كريمة بلهاء !

واتخذ الشرطي سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من

الترمت والأنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير فنيّ يستشف بنظره

حقائق ودقائق لا يعلمها إلا الأقلون . . .

وما إن أتم بحثه وخصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر

في كُسَّارِهَا ، كأنه يستجلى غوامض مصرعها ، ثم داعب حطامها

بجدائه الثقيل ، وما لبث أن ركله ركلةً ألقت به عند حافة الطوار مُجَهَّزاً عليه !

ورجع إلى السائق يقول عابس القسماط :

— خير لك أن تؤدي للصبي تعويضاً . . .

وسرعان ما سرت في الجمع همهمة استحسان لهذا الرأي ، واقلب

الجمهور في لحظة ظهيراً للصبي يأخذ السائق بأن يؤدي التعويض . . .

وألقى السائق نظرةً على الشرطي ، فلمح شاربه يهتر انفعالا واستنجازاً . . .

وألقى شراذم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله وتألبت عليه ،

وإذا الأستاذ شافعي يتصايح معدداً ما لحق الصبي من أضرار ، وما على

السائق من تبعات . . . فلم يجد السائق مفيضاً من الاحتكام إلى الشرطي

في تقدير التعويض ، راضياً بما يكون من حكمه في هذا الصدد . . .

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وفتل شاربه ، ثم نطق بقوله :  
 — أعطه عشرين قرشا . . . لقد أصاب الدراجة تلف شديد . . .  
 دفع السائق هذا المقدار صاغرا ، وتناول الصبي النقود فاغرا فاه من  
 دهشة واعتباط ، وصاح الشرطى بالجمع أن تفرقوا . . . وسرعان ما انقشع  
 الزحام !

انطلق صبيّ اللبان يجرر دراجته في تسكّح ، وهو ينظر إلى يده مطبقة  
 على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمنٌ من هذه القبضة القوية . . . أيأتمن  
 على النقود جبيه المتهتك في ذلك الثوب البالى المهلهل الذى لا يؤمن  
 على شىء ؟

سار وقتا لا يخطر بباله شىء ، ولا يفكر إلا في مصرف هذا المبلغ  
 الضخم . . . إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه الساعة  
 البيضاء !

وفيا هو على حاله ، يقدر ويدبر ، أحس شخصا يتهدى على قرب منه ،  
 وإذا هو الأستاذ شافعى ينظر إليه في تल्प وهو يقول :

— ما رأيك ؟ أمسرور أنت ؟

فانبسط أسارير الصبيّ ، وأطلق ضحكة شوهاء ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

— يبدو لى أنك ولد رقيق الحال . . . ما اسمك ؟

— الفولى . . .

— ماذا تعمل ؟

— صبيّ لبان . . .

— عند من ؟

— عند المعلم فتح الله . . . ألا تعرفه ؟ الرجل ذو الشارب الغليظ ،  
 والكروش العظيمة !

وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكنه الأستاذ شافعى بإشارة منه ، وقال  
 له فى جدّ :

— ماذا أنت صانع بالدراجة العاطية ؟ وماذا أنت قائل للمعلم فى شأن  
 قارورة اللبن المفقودة ؟

فنظر إليه الفولى ذاهلاً يقول :

لم أفكر فى هذا قط !

— إنه سيطالبك بالعشرين قرشاً ، لأنها تعويض عن قارورة اللبن

وعطب الدراجة . . .

فبدأ على وجه الصبى حيرة وتحوّف ، وجعل يردد وكفه تزداد انقباضاً

على ما فيها :

— كيف يأخذ النقود منى ؟

— هى من حقه . . .

وحنا الفولى رأسه فى قنوط واغتمام ، وأخذ يردد :

— وماذا أصنع إذن ؟

— نبحت المسألة ، لعلنا نجد لك مخرجاً معقولاً ، أنت بائس محتاج ، وأنا

مستعد أن أعينك على أمرى . . .

فقال الصبى وقد شرق بدمعه ونظر إلى الشاب نظرات توسل وركون :

— طال عمرى ، وبقي أولادك . . . أنا محتاج حقاً . . . أنا يتيم ليس لى

من أعول عليه . . . وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ، وياليتـه راض

عنى ، فليشدّ ما يضربنى ويخزنى ويهدنى بالطرد . . .

واندفع يشكو ويتضرع ، راعباً فى طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود . . .

وراح الأستاذ شافعى يدور حول الدراجة متفحصاً إياها بعين الخبرة ،

أوبالحرى يوهم الفولى أنه ذلك الفاحص الخبير . . . ثم همهم :

— ربما لاحظ المعلم عطب السيارة فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ،

وبذلك تنجو من سؤاله وحسابه . . . أقوى النظر هو ؟

— عينه كعين الصقر . . .

— هنا نقطة ضعف فى المسألة . . . ولكن ثمة وسائل لإيقاظ الموقف !

— بربك ساعدنى . . .

وتشبث به الفولى ، فراح الأستاذ شافعى يعتصر جهته برهة ، ثم واجه

الصبى مباغتاً إياه بقوله :

— سألتنك بعض جهل قد تنفـعك . . . قل إن ما حدث كان قضاء وقدرًا ،

ولا رادّ لقضاء الله . . . قل إنك سليم النية لم تضمر أىّ سوء . . . قل إن

السيارة حين اقتحمت الدراجة أقبلت أنت على الدراجة تحميها وتحمي ما عليها من قوارير ، حتى دعى جسمك ، وتمزق ثوبك . . .

ووقف الشاب يتوسم الصبي لحظات ، ثم قال :

— يجب أن يدعى جسمك ، وأن يتمزق ثوبك . . . !

— كيف ؟

— أعاجز أنت عن أن تخدش نفسك وتشق ثوبك وتتمرغ في التراب ؟

— أليس من هذا بد ؟

— لا بد من ذلك لا بد . . . لا مخلص لك إلا بهذه الوسيلة . . . إن

المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك . . .

فابتسم الفولى ابتسامته العريضة ، وقال :

— أمرك !

وانتهى الأستاذ شافعى والفولى ناحية من الطريق مهملة ، وشرع الصبي

يؤدى لنفسه مهمة الخدش والتمزيق والتمرغ وفق التعليمات المرسومة ، حتى

بلغ من ذلك ما أراد . . .

فها إن رآه الأستاذ شافعى حتى ربت كتفه ، وقال :

— أحسنت !

ثم تابع قوله :

— لا تنس أن تتداني إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل القسمة ،

تتلوى من الألم . . .

ثم استمر يشرح له الخطئة ، ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح وبما

يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى الفولى ما سمع ، تهباً للمضى فى الطريق ، فنظر إليه الأستاذ

شافعى ملياً ، ثم تصنّع ابتسامه الفطنة ، وقال :

— أراهن على أنك تريد منى أن أرافقك فى مهمتك ، حتى أخلصك من

سطوة معلمك !

فأجاب الفتى فى سداجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك . . . إن هذا الجميل منك . . .

وهنا وقف الأستاذ شافعى وقفه حزم ، وقال :

— ولكن مسألتك أضعفت من وقتي ساعتين ، فإذا تبغى منى فوق هذا ؟  
لدى قضية مهمة لا مخلص من إنجازها ، وجلسة في النقابة على أن أشهدها . . .

فأخذ الفولى يتضرع قائلاً :

— إني خائف من المعلم !

ولبت الأستاذ شافعى يطم شفتيه في امتعاض ، مظهرًا التردد والإحجام ،  
ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الخرية ، وداعب ذقنه لحظة ، وأخيراً قال :

— لا بأس . . . دقائق أخرى من أجلك . . . أنت ولد تستحق المساعدة . . .

وابتهج الفولى بذلك الفوز ، فأقبل على يد الأستاذ شافعى يغمرها بقبلاته . . .

وأخذًا يتوجهان وجهة حانوت اللبان ، فقال الأستاذ شافعى :

— عليك أن تتقدمنى خطوات ، حتى لا يراك أحد معى فيرتاب في

الأمر . . . إنى مراقبك من بعيد . . . وسأدخل في الوقت المناسب !

وأخرج علبة لفائفه وفتحها ، ثم كذف بها في عرض الشارع متسخطا يقول :

— ليس فيها لفائف !

فقال الفولى على الأثر :

أذهب لأشترى علبة ؟

— لا مانع . . .

وأخرج محفظته المنتفخة بالأوراق ، وألقى بصره عليها ، ثم زوى ما بين

حاجبيه ، وقال :

— لا داعى للقفائف الآن . . .

— ولم ؟

— ليس معى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا . . .

قال ذلك وقد سلط عينه على كف الفتى يريد أن ينفذ بصره إلى الريال

المحتق في قبضتها . . . فقال الفولى وقد أحس النقود تضطرب في يده :

— ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير . . . ألا تجرب ؟

فقال الأستاذ شافعى محتدًا :

— حسبى ما ضاع من وقتي . . . أتريد أن تفوتى القضية وجلسة النقابة ؟

— لا أحب أن أراك متضايقًا كما أنت الآن . . .

فصاح به الأستاذ شافعى صيحة عنيفة :

- قلت لك إني مرتبط بمواعيد . . .  
فوقف الفولى منكمشا ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح يفكر ، وهو يردد  
بصره بين قبضة يده يحتزن فيها كنزه وبين الأستاذ شافعى يقف وقفته  
العصبية . . . وأحيراً لم يجد بداً من أن يقول :  
- أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها مما عندى . . . وحين تصرف الورقة  
ترد إلى الثن . . .

- ما هذا الكلام الفارغ يا ولد !  
وتضرع إليه الفولى أن يقبل هذا الحل . . . وبعد تمنع ومناقشة قبل  
الأستاذ شافعى فمد يده وانتزع النقود من يد الصبي وهو يقول :  
- أفضل أن أشتري علبة اللقائف بنفسى . . . اسبقنى وأنا وراءك !  
وسار الفولى يجرجر دراجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم بعضها  
فى بعض ، وكأنها تتساءل عن مصيرها بعد أن تغير البرنامج المرسوم لها  
كل يوم . . . !

تبع الأستاذ شافعى خطوات الصبي ، وكان كما قطع من الطريق مرحلة  
ازداد عنه تباعداً . . . وبين الفينة والفينة يلتفت إليه الفولى ليشعره بأنه  
أمامه يهديه السبيل . . . !

وازدهم السابله أثناء السير ، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى كي ينجو  
بالغنيمة ، ولكن عين الفولى لم تم عنه ، فأفسدت عليه تدبير الهرب ،  
وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغرير . . . !

على أنه اعتصم بالصبر ، وحث خطاه ، مزمعا فى دخيلة نفسه أن ينتهز  
أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء !

ولكنه ما عم أن ألقى نفسه قبالة حانوت اللبان ، حيث تهبأ الفتى ليلج  
بابه متخاضع الهامة ذليل الخطا . . .

وكانت وجهة الحانوت بيضاء مغبرة قدرة ، وعلى عتبة الباب يتسائل  
الماء فيملاً البقعة بالأوحال . . . ومن خلال زجاج الوجهة يتراءى مصباح  
كهربى يتدلى فى نحو مبتدل ويتهافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص  
شائه لحيوان أوضح ما فيه ضرع كبير ، لا تدرى أبقرة هو أم لبؤة أم هرة  
عجوز ! . . . وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة العالم ، يتعالى

منها صوت متحشرج تشيع فيه رنة السخط ، ما أشبهه بنخششة مذياع خرب !  
لمح الأستاذ شافعي هذا المنظر ، وتناهى إليه ذلك الصوت ، فألقى نفسه  
قد انزوى في ناحية يتطلع ويتسمع ، يدفعه الفضول إلى تعرف ما يكون . . .  
واستطاع أن يتابع في صعوبة تلف زجاج الوجهة الكدر مشاهد الرواية  
بين بَطَلَيْهَا : المعلم والصبي !

الكتلة البشرية تتحلحل ، شبح الفولى عن كذب منها يتخاذل تخاذل  
الظل الناصل أمام الضوء الكاشف . الحشرة تنقلب زجرة حبيسة كزجرة  
الاعصار حين يتهب للزيف . الكتلة تنقض على الظل الناصل فاذا هو  
لا عين ولا أثر . الاعصار يعصف كأنه دوامة مَوَاجَة يضع فيها صراخ  
الاستغاثة المضضع . . .

وما هي إلا ان أُنْقِذْتُ من الخانوت إلى الطريق تلك المزقة الآدمية التي  
تدعى الفولى ينبعث منها تأوه وانتحاب . . .

وسرعان ما تهافت حول الصبي الصريع نفر من الفضوليين ما كاد يتبينهم  
حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب وجيع بلا جريرة  
ولا ذنب . . .

وكان يتطلع يمنا ويسرة باحثا عن منقذه وأمين كنزه الثمين ، قلم يره  
على فرط التلفت والتصفح للناس . . .

وعمرت الحلقة بعابري السبيل ، وأخذ الناس يتذمرون ويتبادلون شعور  
الاستياء من صاحب الخانوت ، بعد أن تجلى لهم ما بَرَّحَ بالفتى من الآلام ،  
وما أصابه من جراح . . .

في هذه اللحظة بزغ النقذ ! . . . فاخترق الحلقة ، وشرع يسائل ،  
وتطلق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ،  
وهي تصيح بالجمع أن يتبدد . فخطا الأستاذ شافعي خطوة إلى الأمام  
وقد علا بصدرة ، وانبرى يسوئى رباط رقبته المنتفخ يستمد منه الحمية  
والتشجع ، وقال :

— هذا الولد مظلوم ، خليك بالرثاء !

فأرعد المعلم قائلا :

— إنه أحبث مخاثل خداع . . .

— وهذه الجراح ؟ وتلك الكدمات ؟  
واقرب الأستاذ شافعى من الصبي يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتا  
إلى الجمع :

— يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته !  
فهمهم الجمع :  
— ترقوته ؟

والتفت الأستاذ شافعى إلى الصبي يقول :

— قم يا ولد . . .

وما كاد الصبي ينهض حتى صاح الأستاذ شافعى :

— شدّ ما يتألم !

وفى هذه اللحظة سمع الصبي ييار بالشكوى ويتوجع . . . وتابع الأستاذ  
شافعى قوله :

— إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . . انظروا إليه يتهاك على الأرض  
مشخنا بجراحه !

وما أسرع أن ارتمى الفولى على الأرض ، فواصل الشابّ قوله :

— يا لله ! المسكين يكاد يفقد وعيه . . .

وما إن أتمّ قولته ، حتى تمدد الصبي خامد الأنفاس . . .  
وصاح الشاب يقول :

— هذا ما كنت أخشاه . . . حقا إن ترقوته قد كسرت ، وهذا أعراض  
انكسارها . . . يجب أن نستدعى سيارة الإسعاف وإلا . . . وإلا أفلتت  
فرصة العلاج !

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش ، ولكنه  
ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة شنعاء . قائلا :

— ماذا تقول يا أفندى ؟ أية ترقوة ؟ وأىّ إسعاف ؟

ومد قدمه إلى الصبي يغمزه ويقول :

— قم يا ولد . . .

ولكن الفولى كان حريصا على الازدعان لنصائح الشاب ، فلم يبد فى  
رقدته حراكا . . . وكان وهو محدود على أديم الأرض تكسو وجهه الجراح ،

وتعلو ثيابه الأوجال ، حريا أن يستثير مشاعر العطف والاشفاق . . . فتعلت هممة سخط وتغيظ بين جمهرة الناس ، فقال أحدهم يوجه كلامه إلى المعلم :

— أليس في قلبك ذرة من رحمة ؟ إن الولد يجود بنفسه !

فصاح الأستاذ شافعي وقد انحنى على الصبي يتحسسه :

— الحالة خطيرة . . . أخشى أن يكون قد أصيب بنزف باطنى . . .

ألا أجد رحيا يسعفنا ببعض المنعشات ؟

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والخل . . . وأقبل الأستاذ شافعي على الصبي يدلكه وينشقه ، ثم تركه لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه ، وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلمه العتيد المتداعي من حبيب سترته الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

— ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟

فغمغم المعلم وقد تغضن جبينه :

— مسئولية جنائية ؟

— حقا . . . إنها لمسئولية خطيرة ، تزُجّ بصاحبها في محكمة الجنايات ! وهمّ المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تحتقن في زوايا حلقه . وكان الأستاذ شافعي يرقبه بالنظر الثاقب ، فلمح شارب العلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن . . .

فصاح على الأثر :

— لا أقل من سجن خمس سنين . . . أو حسبت أنه لا حساب

ولا عقاب ؟

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :

— وحضرتك من تكون ؟

— ألا تعرفني ؟

— لم يسبق لى شرف التعرف . . .

— أنا السكرتير الخاص لنقابة الطب الشرعى ، وعضو اللجنة العليا

للاسعاف ! . . .

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :

- وسعادتك . . . بماذا تأمر ؟
- لا شأن لى بالموضوع . . . لا مصلحة لى قط . . . على أن أبلغ الأمر للسلطات المختصة . . . هذا كل ما يجب أن أعمله ، أما الاجراءات القضائية فانها تأخذ مجراها . . .
- فمد المعلم فتح الله يده إلى كتف الأستاذ شافعى ، وجعل يربتها فى ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة متلطفا وهو يقول :
- تعال معى إلى الحانوت نتحدث على مهل . . .
- وسار به إلى الحانوت ، وواصل قوله :
- هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد رببته ، وليس بعسير على أن أعالجه . وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به . . .
- ودخل كلاهما الحانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يغلقه ، وشوهد شبجهاهما من خلال الوجهة الزجاجية ، وقد انتحيا ركنا قصيا ، وانبريا يتناقشان ويتحاوران . . . ثم شوهدت الكتلة البشرية تدمس خفية فى يد الأستاذ شافعى شيئا لم يكده يلمسه حتى خفت حدته فى المناقشة ، وانقطع عن اللجاج !
- وخرجا من الحانوت يظللهما الصفاء . . .
- وسمع الناس الأستاذ شافعى يخاطب المعلم بقوله :
- سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما فى معاملة الغلام ، ولا تدع غضبك يسيطر عليك . . .
- وأمر باحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها الفولى ، ووثب الأستاذ شافعى يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام . . .
- وما إن ابتعدت عن الحى حتى اعتدل الفولى فى جلسته ، وتطلع إلى وجه منقده يتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره الأستاذ شافعى بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه الريال العتيد ، ودفع به إلى الفولى ، قائلا له :
- خذ تقودك . . .
- واللفائف ؟
- لا حاجة لى بها الآن . . . حسبي ما أضعت من وقى فى مشكلتك الأولى والأخرى . . .

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور . . .  
 وظهر في المنتديات وفي المجالس الكبيرة شبابان تزيئهما حلة إفرنجية ، أحدهما  
 حديد البصر يعنى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ،  
 وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ذا الغطاء المذهب ، وهو مطل من جيب  
 سترته الأعلى . . . ويجوار هذا الشاب فتى يافع يلازمه ملازمة الظل .  
 لا ندري آدمى هو بحق أم هو من ذلك النوع البدائي المقرض من سلالة  
 الانسان ، ذلك الذى تخيله داروين حلقة الاتصال بين القرد والبشر . . .  
 فهو على الرغم من جدّة حلتة ، يبدو مختل الزى بلا هندام ، حركات شاذة  
 فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يبعثرها فى غرارة ، وابتسامة  
 عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشميم !

ولشد ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :  
 - قلت لك دع هذه الابتسامة ، لا تضحك على هذا النحو ، متى تتعلم !  
 فيتطلع إليه الفتى على حاله لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويحيب ساذج

اللهجة :

- وماذا تريد منى أن أفعل ؟

- أريد أن تكون كخلق الله !

- أأست من خلق الله ؟

- إنك لحيوان . . .

- طال عمرك ، وبقى أولادك !

وينفرج فمه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح ضحكة كأنها تشاوية بشعة . . .  
 فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشمئزاز ، وتعتلج فى نفسه نزعة جامحة إلى  
 صفعه ، ويلقى كفه تحتلج ، ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه قذف فى وجه الفتى

ورقة مالية صغيرة ، وهو يصيح صيحة الاسرة :

- حل موعد الطعام ، فاعزب عنى ، وأرخنى من طلعتك بعض

الوقت . . .

فيتلطف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

- لا حرمنى الله فضلك وإحسانك . . .

- لا تتأخر . . . يجب أن ألقاك فى الموعد . . .

ثم يحسر كه عن معصمه . ويلقى بنظرة خاطفة على ساعته الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

— أمامك ساعة . . . ستون دقيقة فقط . . . أفاهم ، أنت ؟

— فاهم يا سعادة البك . . .

— إن وقى محسوب على . . . القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض .

فخذار أن تتخلف . . .

— كان الله في العون !

— إن الله تعالى لم يشأ أن يعينى بمعرفتى بك . . . لقد زادت متاعى

منذ سقطت على . . . ولكن ماذا أنا صانع ؟ أألتي بك في عرض الطريق ؟

لك رزق . . . إنما نطمعكم لوجه الله . . .

— عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك وتذكر موعد اللقاء . . .

ويخرج « شبه الأدعى » يقفز في مرح ، تراوده شهوات الطعام وألوان

المآكل . . .

منذ يوم الحادئين التاريخيين — حادث السيارة ، وحادث المعلم فتح الله —

تاحت للأستاذ شافعى فرصة تتجلى فيها مواهبه على نحو جديد . . .

فكر في شأن ذلك الصبى ، فرأى أنه إن اتخذه تلميذا يستخدمه في مثل

هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا . . .

وكان الأستاذ شافعى فطنا حصيفا لا يتهور ؛ فهو لا يتقدم خطوة إلا إذا

مهد لقدمه موضعا ، فبدأ يصطنع الصبى على نحو يأمن معه الزلل والافتضاح ،

واتخذ من حادثة المعلم فتح الله أساسا للعمل ، فسعى في إلحاق الفولى

بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد تمثيل الرواية بعد أن أقتن تجربتها

وأبدع في إخراجها وزادها فصولا إلى فصول ؛ فقد كان الأستاذ شافعى

مجدداً حقا في أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة في الاعداد والتكرار . . .

ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بريبه وصنيعته إلى صيد جديد .

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا واثق إنساناً ألفه ، فلم يغدر به ؛

وإذا أخلف لم يكن له من عود ؛ فالأقصدار التى أخذت بناصر

الأستاذ شافعى ظلت تمنحه العطف والتأييد . . .

فقد وقعت يوماً حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول في خطة ذلك الشاب المغامر ، إذ أصيب الفولى فعلاً بصدمة سيارة كادت تتركه في ذمة النون . . . فما أسرع أن رفع الأستاذ شافعى الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين التي كانت تضمن حوادث هذه السيارة . . . فقد ثبت أن الصدمة تروكت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » . . . ولم تكن في الواقع عاهة يأبه لأمثالها الفولى ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى الذى هو عرضة للجد والاحتمال . . .

هنا انفتح لعين الأستاذ شافعى مجال تكمن فيه الذخائر والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاهة المستديمة » !

وعلى كثر الأيام اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ، إذ وجد الأستاذ شافعى نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد فى جد وإحكام ، ولم يكن هذا ليعيبه . . .

وبذلك أصبح ذات يوم فألنى نفسه مُروّضاً حقا لهذا الحيوان شبه الأدمى .

سروضا له على نهج مرسوم وخطة مقررة لغاية وأفضحة تمام الوضوح . . . !

وكان عليه أن يتدرب بالصبر والحلم ومكابدة المشاق ، يغدق الرحمة والحنان أحيانا حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلى يتخذ من الأدوية والسموم ما يلائم ملايسات الأحوال ، حتى يستطيع بذلك أن يجعل هذا الحيوان شخصية ماهرة تجيد اللعب فى مخاطر الحياة ، كما يجيد البهلول قفزاته العالية يتطوح بها يمنة ويسرة فى حلقات الملاعب . . .

لقد غدا الأستاذ شافعى فى حياته الجديدة مبتكراً مخترعاً ، يحتبس فى مكتبه ليرسم الخطط ويعد التجارب ، فاذا فرغ من رسمها وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من التمرين ، ثم يجرجه معه كما يجر الصياد شبكته ، ويرمى به فى مععان الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فاذا هو مملوء الوفاض بالمغانم والخيرات !

أما الفولى فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه فى أمر أو ، نهى . . . لقد وهب لأستاذه كامل ثقته . فلم تكن المخاطر تهزه أو تهوله ،

ما دام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعا . . . لا مريه أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان لأستاذه أن يريد به السوء !  
وأخذ الأستاذ شافعى ينتقل فى البلاد مستصجبا صنيعته ، لا يستقر له قرار فى بلد واحد ، يرتاد المصايف والمشاق ، حسبه أن يزوج بصبيه فى المزارق والمآزق فلا تلبث المغامم أن تفى إليه باردة طيبة لا تكلفه عنتا . . . فعاش عيش المترفين المنعمين ، يلتقى من مائدته فتاتا لربيبه الصبي ، فيلتقطه محبوراً تقر عيناه . . .

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ، فكان يؤثر منها أضخمها تبعة وأثقلها كلفة . . .  
وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد الفولى ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالشوب المرقع ، بقيت فيه المزق ، ولعب بأصله العفاء !

وأصبح للفولى اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصححات ، يقضى فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها من أيام السلامة والعافية . . . وكان ذلك مما يغيره بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ؛ فان عيش المشافى والمصححات أهناً وأمراً ، وإن حياته فى تلك الدور لهى حياة رفاهية ومتاع ، إذ هو بين أيدي المرضات يتعهدنه ويلاطفنه ويقدمن له أنظف الملابس وأطيب الطعام والشراب . . .

وتعاقبت الأيام والفولى مطمئن بجياته ، رافه البال ، يعيش فى قفص من عاهاته المستديمة كما تعيش القوقعة فى محبس من صدقتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية . . .

ولكن الأستاذ شافعى لم يعد يشارك الصبي هذه الطمأنينة ؛ فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبي لن يعيش طويلا إذا تعرض لصدمة أخرى . . . فوقع هذا النبأ على الأستاذ شافعى وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليا ، واضطر أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه بموفور الرعاية . . .

وكان كما خطر بباله أنه قد يفقد الفولى يوماً ، شعر بصرح آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب شيئاً لمثل هذا

اليوم ، اليوم العصيب المنتظر . . . فقد كانت المائدة الخضراء ، ومناضد الشراب ، ومجالس الغواني ، تتناهب كسبه ، فلا تبقى ولا تذر . . . هل من سبيل لاقاذه من تلك الكارثة التي توشك أن تحيق به فتسلمه إلى البوار؟

كان مرة في السينما ، فشهد رواية إجرامية دارت أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، فخلبه الموضوع ، وراقته الفكرة ، ومضى يسائل : أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سبباً لاقاذه مستقبلاً ؟  
لم لا ؟

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنته تلك المسحة الشريرة ، وأحس من قرارة نفسه باعثاً يحدوه على عمل فاضل وأمر محتوم . . . إنها الورقة الراجحة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟ إن حياته كلها كانت حتى اليوم ربحاً لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضاً مواتاة حظها ، وإنه لعلى يقين أنه لن يتنكر له . . .

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة حتى تغنيه عن تلك المغامرات الصغيرة التافهة التي هي علالات عجاف !

في هذه اللحظة طالعت صورة للفولى لمقاة على مكتبه ، وهو يتسم ابتسامة تكشف عن قسماته الحيوانية ، كأنه يذكره بفضلها عليه ، فتأمل الصورة حيناً بعين مغیظة ، وما عثم أن قذف بها بعيداً ، وراح يذرع الحجر ذهاباً وجيئة . . .

الفولى . . . من هو ؟ بل ما هو ؟ . . . غر مأفون ، وسيموت يوماً ، ما من ذلك يد . فإذا إن تقدم به الأجل ؟ كثير غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت وهم في ريق العمر ، وفي الصبا النضر ، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير !

الفولى . . . إنه ميت لا محالة . . . ولكن المهم من أسره إذن أن يموت في الوقت المناسب على الوجه المناسب ، فيضمن لموته قيمة لا تضع ، وإعما تكون جزاء لولي نعمته الذي انتشله من الحضيض ، ورفعته في مراتب الحياة درجات !

وانفرج الباب في هذه اللحظة عن الفولى يخب في حلتها الجديدة غير

المهندمة وهو يحيى الأستاذ شافعى يتلك الايتسامة المثيرة للأعصاب . . .

فتداني منه الأستاذ شافعى وربت كتفه ، وهو يقول :

— سنخرج معاً . . . أمتأهب أنت ؟

— أنا طوع أمرك . . . إلى أين ؟

— سنمضى إلى بعض زيارات . . . زيارات هينة . . .

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف ، ورى بها نحو الفولى فى ملاطفة ومعاينة ، فلققها الصبى وهو يترنح من طرب . . .

مضياً . . . متجهين إلى إحدى شركات التأمين . . .

واقضى أسبوعان والأستاذ شافعى يستصحب ربيبه متنقلا به بين شركات

التأمين يعرضه عليها مستشيراً إياها فى التأمين على حياته . . .

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام ، حتى

استقر قراره بعد لى على اختيار إحدى الشركات السخية فى شروطها ،

ويدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبى ، فطرح الفولى بين يدى الأطباء

يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة ، متفحصين إياه فى عناية واهتمام وحذر ،

واستعانوا فى فحصهم بتحليل الدم واتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبى

فى أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر فى اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع ، حسب

أن يحس الغبطة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد من حوله يشمل

باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدهسها الأستاذ شافعى فى

جيبه فى عناية واحتراس . . . وما إن ترك المكان حتى التفت إلى الفولى

يقول وعينه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

— أتعلم ماذا كان من أسرك الساعة ؟

— ماذا ؟

فوقف الأستاذ شافعى يتأمله بعينى النسر الشره ، ثم قال :

— إن حياتك التى لم تكن تساوى قشرة بصلة ياسيد فولى قد أصبحت منذ

للحظة تساوى آلافاً من الجنيات !

فحلق الفولى مبتهجاً مهتاج الخاطر ، ينشق فمه عن ابتسامته الكريمة

الليها ، وهمهم :

— كيف ؟ . . . كيف هذا ؟  
 — ذلك هو الواقع . . . لقد رفعتك من لا شئ إلى كل شئ . لقد جعلت  
 حياتك قيمة غالية . . . افهم أنك أصبحت الآن عظيماً ، عظيماً جداً أيها  
 الحيوان ! . . .

فتضحك الفولى مترنح الأعطاف ، وقال :  
 — طال عمرك ، وبقى أولادك . . .  
 هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ صلة الفولى بأستاذه الشافعى ، مرحلة  
 يلعب فيها القدر لعبته الكبرى . . .  
 لقد أمسن الأستاذ شافعى على حياة الفولى بمبلغ ضخم ، وجعل نفسه  
 وريثه الأوحد . . .  
 لقد توصلت المسألة . . .

إن الذى كان يخشى الأستاذ شافعى وقوعه قبل اليوم ، أصبح الساعة  
 هو الذى يشتهي ويتعجله ويرى فيه فردوس أحلامه . . .  
 عليه الآن أن يعمل بجد . . .  
 وسرعان ما شمر عن ساعد الاهتمام ، واستأنف مراجعته لمشروعاته ينبقها  
 ويحيد إخراجها ويجملها بما يجعلها أحد وأمضى !  
 وتأهب الفولى لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام . . .  
 كانت الخطط السابقة تنسم بالحيطه والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة  
 يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة . . .  
 وشرع الفولى يدرك ببصيرته الحيوانية ، بصيرته التى تنيرها غرائز  
 الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصراً جديداً قد اندس في مغامرات اليوم . . .  
 ولكن ما هو ؟

ذلك ما لم يستطع التفتن إليه والكشف عنه . . .  
 وأحس يوماً في إحدى المغامرات يد الأستاذ شافعى تدفعه دفعاً تحت  
 عجلات السيارة ، على حين أن الخطط في سوائف المغامرات كانت تلزم  
 الأستاذ شافعى أن يظل بعيداً عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة . . .  
 وما هى إلا أن وجد الفولى نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان  
 الاخفاق نصيب المغامرات المدبرة . وتأصلت في قلب الفولى مخاوف لم يكن

يدرك تمام الادراك مآناها . . . فكان وهو على أهبة التحم في ميدان الخطر يشعر في اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فاذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح . . . !

أثار هذا الاخفاق المتتابع غضب الأستاذ شافعى ، فكان يعنف ربيبه أقسى تعنيف ، ويحضه على الاقدام والتشجع ، ويسائله :  
ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟

فلا يجيب الفولى إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة وارتجاج . . . وكثيرا ما همّ الأستاذ شافعى أن ينحى على ربيبه بالضرب الموجع ، ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه يلاطفه ويتملقه ، ويلاينه بمعسول الأمانى . . . فكان الفولى يمدق فيه طويلا بعينه الكائيتين الكئيتين ، كأنه يريد أن يستكنه هذا الملق وما ينطوى عليه من سر . . . وسرعان ما ينخرط في بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة والانتقباض ، كأنه تائه يضرب في بيداء ماحلة تعوى فيها الرياح . . .

اختلت برامج الأستاذ شافعى كل اختلال ، وخلا إلى نفسه وسائل في أمر هذا الصبي المعتوه ، وما عراه من تغير حال . . . أى شئ أصاب الصبي حتى جعله يتخذ خطة أخرى في مجابهة الصعاب وملاقاة المخاطر ؟

لقد كان من قبل مذعنا لارشاد أستاذه منجزا لخططه في استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان . . .

فما خطبه اليوم يحجم ولا يبدو طيسعا كما كان ؟  
ماذا جرى ؟

هل أحس أن نية سيده قد تغيرت نحوه ، وأنه يأتمر به ليهلكه ؟  
لا ريب في أن الصبي هو هو ، فعقله هو عقله ، وفطنته هي فطنته ، ليس بقادر على أن يستشف مجهولا ولا أن يستبطن شيئا مما غاب . . .  
أثمة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر وتجلو السرائر وتتوضح بها النيات ؟

أفى مستطاع الغرائز غير مستعينة بالعقل والادراك أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول والفطن ؟

كان الفولى مستسلماً مطمئناً ، يوم كانت نيات أستاذه الشافعى نحوه يبضاء لا تريد له هلاكا ، بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . . . ولكن الصبى اليوم يتقلب إلى الضد ، فيتقيه ويحذره ويستريب به ، لا لسبب إلا أن الأستاذ شافعى فى سريرة نفسه التى لا يعلمها أحد قد فكر فى الخلاص من ربيبه . . .

أترى الفولى بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما يهدف إليه أستاذه من أغراض . . .

عالج الأستاذ شافعى ربيبه بمختلف الذرائع وأشتات المغريات ، وإذ يضيق بأمره ذرعا لا يجد بدا من أن يتقصده بالضرب المبرح والايذاء الأليم . . . فكان الفولى يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروعك منه إلا كشره ضارية تعلو فمه كما تكشف الذئاب المتأهبة للالتهاش . . .

ولا يكاد الأستاذ شافعى يرى الفولى قد كشر عن أسنانه على هذه الصورة البشعة حتى يتقهقر عنه ، وقد أوجس خيفة منه !

وانتهى الأمر بأن أعلن الفولى جهرة إضرابه عن تنفيذ أى مشروع يراد عليه . فأسقط فى يد أستاذه الشافعى ، وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح ، وتلبس الفولى بعناد كما يعاند الحمار إذا حرن ، وتأنى أن يتزحزح عن موقفه مهما يكن من أمر . . .

ونشبت بين الصبى ومروضه عداوة مضطربة كان من العبث إخفاؤها . . . وكان الأستاذ شافعى يكشف صبيه بالعداء فى ضجة وعنف . فأما الصبى فقد ظل منطويا على ضغنه الخبيء ، يجلس الساعات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحدق فى الفضاء أمامه بعين تأهبة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيبته على أثر رجفة تنتظم أوصاله ، إذ يترأى فى مخيلته الأستاذ شافعى وقد عاجله بضربة على أم رأسه تسقطه مضرجا بدمه . . .

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة . . . الأستاذ شافعى جالس إلى مكتبه وهو عابس يتنفخ ، والصبى متجمع فى ركن قصي يجالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألفى الفولى نفسه يصير بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ، وتحفز للذود عن نفسه وحياطها من كل مكروه . . .

تواصلت الأيام ، والفولى غريق عناده وكآبته وصمته ، وبدأ الأستاذ شافعى يجد ربح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ، وأقبل على ذكائه يهزه ويعتصره ، ولكن عزّ المعين !

وسرة كان الغريمان على حالهما فى حجرة المكتب ، وإذا الأستاذ شافعى ينهض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر الوجه من الغيظ ، وصاح بالفولى قائلاً :

— تعال هنا يا ولد . . .

فرماه الفولى بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك . . .

فردد الأستاذ شافعى صيحته :

— تعال هنا يا ولد . . . هل خرت ؟

فأشاح الفولى برأسه بأبى الاستجابة للأمر . فخطأ إليه الأستاذ شافعى ، فما إن رآه الفولى مقبلاً حتى نهض دفعة واحدة ، فزأر الأستاذ شافعى قائلاً :

— لماذا لا تطيع أمرى ؟

فهمهم الفولى فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه سخابة كدرة مفزعة :

— هكذا فعلت !

— وإنك لتتوقح فى القول ؟

— هكذا أنا . . . !

فنفرت أوداج الأستاذ شافعى ، وألنى يده تتعالى ، ثم تهبط بصفعة عاصفة ، فاهتز لها كيان الصبى ، ولكنه لم يزُل عن موقفه ؛ وكل ما كان منه أن انقلبت عيناه بقعته دم فائر . . . وهمهم وهو يصير بأسنانه صريراً يكاد يحطمها :

— لا تضرب !

فتحمس الأستاذ شافعى ، وصاح مجلجلاً بصوته :

— أضربك وأضرب شياطين أيبك . . .

فتابع الصبى صرير أسنانه ، وجمجم :

— قلت لك لا تضرب . . .

— إنك خارج الآن معى . . .

— كلا . . .

— قلت لك إنك خارج . . .

— لن أخرج !

وارتفعت يد الأستاذ شافعي ، وما كادت تهبط بصفتها حتى التقت بيد متحجرة جبارة تمسك بها في قساوة وعنق . . .

وسرعان ما التحم الخصمان ، وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع بكل ما أوتي من قوة وشراسة . . .

فكانت الضربات تتهاوى هنا وهناك ، وكان الخمش والحشد يتناثران ذات اليمين وذات الشمال . . .

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها . . .

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية لا تعرف غير الضراوة والافتراس !

وجرت المعركة لا يسمع فيها إلا هدير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللكمات والضربات . . .

وتدانى الجسدان من الشرفقة ، وسرعان ما اشتبك في عراقك على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين في الهواء . . .

ولم تكذ صيحتهما تعلو حتى ذهب بها صوت سقطتهما العنيفة من حلق . . . فارتدى الجسدان هامدين !

وتجمع حولهما السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطي ، والناس من حوله يصفون له ما وقع في تضارب واختلاط . . .

في هذه اللحظة الهوجاء وقعت عين الشرطي على شيء أبيض يطل من جيب الأستاذ شافعي ، وكأن هذا الشيء يحاول جهد الامكان أن يفسح له مشابة في عالم النور ليعلن وجوده في وضوح . . .

فاجتذبه الشرطي يتعرف ما هو؟ فإذا هو غلاف كبير مكتوب في جيبه بالخط العريض :

وثيقة التأمين على الحياة ! . . .